

نظرة على السلطة الدينية (المتصوفة) في الجزائر خلال العهد العثماني

View on religious authority in Algeria during the ottoman period

د. بعارسية صباح

جامعة الجيلالي بونعامة بخميس مليانة-الجزائر -

sa.bearcia@gmail.com

تاريخ القبول: 2020/10/04

تاريخ الاستلام: 2020/05/08

ملخص:

إن الهدف من هذا البحث هو التعرف على السلطة الدينية (المتصوفة)، التي كانت ممثلة في المرابطين والأشراف وشيوخ الزوايا ورؤساء الطرق الصوفية والأتباع من فقراء وخدام...، في الجزائر خلال العهد العثماني. لقد حظيت هذه الفئة باحترام الحكام لما كانت تتمتع به من احترام وتبجيل وحتى تقديس العامة لها لأسباب تاريخية أنثروبولوجية. لقد سيطر المتصوفة على البوادي روحيا، وذلك بانتظام الشيوخ الدينيين ومروسيهم وأتباعهم في شبكات كبيرة يمكن أن تغطي مسافة كبيرة بين الشيخ ومقدميه، دون أن يؤثر ذلك على العلاقات بين الأصل والفرع. وكان تمويل هذه العناصر من أوقاف المسلمين الذين تسارعوا للتصدق بأموالهم ووقف أملاكهم على زوايا المرابطين والطرق الصوفية. وقد توصلنا لنتائج أهمها أن مداخيل هذه الفئة كانت كبيرة جدا لأن ممولها كان الرعية. والنتيجة الثانية أن النفوذ الروحي الذي حظيت به الطرق الصوفية في الجزائر كان عظيما، فقد وصل انتشار طرق صوفية لمناطق لم يتمكن الحكام من إخضاعها بحد السيف. كما كان لهذه الطرق الصوفية زوايا منتشرة هنا وهناك، مهمتها التعليم واستقبال الزوار وجمع الصدقات...

كلمات مفتاحية: المرابطون، الطرق الصوفية، الزوايا، الصدقات، الشيوخ الدينيون.

Abstract:

The aim of this research is to get to know the religious authority (Sufis) in Algeria during the ottoman period, which was represented by the Marabouts, the Chorfa, the Sheikhs of the Zaouia, the heads of religious brotherhoods, and the followers who were the poors and the servants... etc. The Sufis had the respect and the reverence of the rulers due to the sanctification of the commons for historical and anthropological reasons. So we came to a number of results, we mention from them the most important which are: first, that the incomes of the religious authority were very large because it was being financed by the commons.

* المؤلف المرسل: بعارسية صباح، الايميل: sa.bearcia@gmail.com

Second: is that the spiritual leverage that the Sufis had was great, which made them reach areas that even the rulers could not control by power. There were also Marabouts Zaouias that went under the rule of religious brotherhoods, due to the great influence of their leaders on the commons.

Keywords: Marabouts; religious brotherhoods; Zaouia; Charity; Religious leaders.

مقدمة:

المقصود بالسلطة الدينية هنا المتصوفة؛ رؤساء الطرق الصوفية، وشيوخ الزوايا من مقدمين وخلفاء ووكلاء...، والمرابطين، والأشرف... ومن كان تحت نفوذهم من الأتباع والفقراء والخدام. وليس المقصود علماء الدين من مفتيين وقضاة وأئمة ومدرسين وطلبة، هؤلاء شكلوا السلطة العلمية. لقد حازت السلطة الدينية في الجزائر خلال العهد العثماني وقبله على احترام السلطة السياسية (الحكام)، ومرد ذلك لسيطرة المتصوفة على البوادي روحيا. وقد مارس الشيوخ الدينيون هذه السلطة على بسطاء الناس ليحلوا سياسيا محل الدولة المركزية التي أخذت تضعف وتضمحل. فهل كان المتصوفة، خاصة منهم الشيوخ، متنفذين مسموعي الكلمة؟

وهل أثرت هذه السلطة على المجتمع الجزائري؟

ما كان دورها في الوضع الذي آلت إليه الجزائر عشية الاحتلال الفرنسي؟

إن سيطرة المتصوفة الروحية على أعداد كبيرة من الناس، خاصة قبائل الرعية، الممول الأساسي لخزينة الدولة ربما يفسر موقف الحكام العثمانيين من هذه الفئة. إن الهدف من هذه الورقة هو دراسة السلطة الدينية دراسة تاريخية أنثروبولوجية للوصول لنتيجة محددة هي مدى مسؤولية هذه السلطة في تردي الوضع في الجزائر. وسنعرض للسلطة الدينية من حيث البنية والتنظيم، وسنذكر أهم الطرق الصوفية وأهم الزوايا، ونختتم بالوضع العام لهذه السلطة، وأثر ذلك على العام والخاص.

أولا: التعريف بالسلطة الدينية وتنظيمها (بنيتها):

سنعرض هنا لعناصر السلطة الدينية من الشيخ إلى الخدام، ثم نعرض المداخل التي كانت تعتمد عليها هذه السلطة في مصاريفها. لكن قبل ذلك لا بد من الإشارة للفتات الدينية التي كانت موجودة في الجزائر خلال العهد العثماني لنميز بين السلطة الدينية وبين السلطة العلمية (علماء الدين).

1) الفئات الدينية:

يرى لوي رين أن رجال الدين في الجزائر ثلاث فئات:

أ- الرسميون الذين يحصلون على أجره من السلطة الحاكمة، يصدرون الفتاوى حول الأمور الشرعية، ويُعرفون بالعلماء، مثلوا السلطة العلمية.

ب- المرابطون الأحرار؛ لا ينتمون للسلطة الحاكمة ولا للطرق الصوفية؛ منهم من له نفوذ محلي لا يتجاوز الجهة التي يقطنها، ومنهم من له نفوذ أوسع. وهم من أصحاب الزوايا الذين يرثون السمعة الدينية لشخصية دينية؛ شريف، أو ولي صالح. وقد كان لبعض هؤلاء نفوذ كبير قد يتجاوز نفوذ الأغا أو القايد، وبعضهم الآخر يعيش في كوخ قرب ضريح الشريف أو الولي.

ج- قادة الطرق الصوفية وهم نفوذ واسع قد يتجاوز البلاد كلها، ولهم إمكانيات مادية كبيرة (L.Rinn, 1884, p 6). والفئتان الأخيرتان هما المقصودتان بالسلطة الدينية التي ستعرض لها في هذه الورقة.

2) عناصر السلطة الدينية:

تتداخل عناصر الزاوية مع عناصر الطريقة الصوفية، ويصعب التمييز بين الشيخ المرابط صاحب الزاوية، وبين شيخ الطريقة صاحب زاوية كذلك، لكن على رأس السلطة الدينية يوجد شيخ مُطاع لا تُرد كلمته.

الشيخ: سواء كان مرابطاً أو شيخاً لطريقة صوفية؛ هو المدرّس والمصلح والمفتي والمستشار والدليل الروحي لكل من يلجأ إليه ...، ولا يعترف إلا بقوة الله ورسوله (A.Cour, 1921, p 88). وقد يمنح صلاحيات واسعة لنائبه أو للمقدم بالمناطق البعيدة عن مقر إقامته (A.Bel, 1928, p 22-23).

الخليفة: هو نائب الشيخ ومثله في البلاد البعيدة والزوايا الفرعية (O.Depont et X.Coppolani, 1897, p 195-196)، أما بالزاوية الأم، فهو المعلم الكبير الذي يختاره أولاد المرابط المؤسس وأحفاده، وتحت إمرته عدد من الشيوخ يدعون بالمقدمين (C.Brosselard, 1952, p 9). وقد يكون الخليفة هو النقيب بالزاوية الأم (O.Depont et X.Coppolani, 1897, p 208). أما بالزاوية المحلية فيقوم شيخها بتعيين خلفاء للمناطق، والذين غالبا ما تصبح منازلهم زوايا وليدة متفرعة (س. ترمينجهام، 1997، ص 268).

الوكيل: يعوض المرباط حال وفاته، وانقطاع عقبه، ويلتزم بذلك حرفيا جميع طلبة الزاوية والأتباع المعروفين، وتحديد الإخوان، فيوزعون بينهم، حسب قدراتهم ومكانتهم من شيخ الزاوية، الخدمات والمهام المتعددة، وقد يلجؤون أحيانا، حرصا على مصلحة الزاوية، لوضع تعليمات وإجراءات محددة في شكل قانون داخلي للزاوية، يُحفظ بالتواتر أو يُسجل كتابيا (سعيدوني، 1999، ص 7). والوكيل هو الذي يدير أملاك الشيخ، فهو المحاسب والمسير ورجل أعمال وحارس ضريح سيده، تحت إدارته عدد من الخدم (الشاوش) (O.Depont et X.Coppolani, 1997, p 208)

المقدم: هو مندوب الخليفة أو ممثل للشيخ أمام العامة بالزوايا الفرعية. وقد يمنحه الشيخ صلاحيات واسعة بالمناطق البعيدة عن مقر إقامته، لكن وبسبب اتساع الرقعة الجغرافية لبعض الطرق الصوفية، حدثت لامركزية، حيث ظهرت طرق صوفية جديدة تحت رعاية شيخ محلي، أو بانتخاب المقدم الذي يمنحه شيخ الطريقة الأم إجازة (A.Bel, 1928, p 25-26 et 22-23). وعلى المقدم أن يُسير منطقة محددة دينيا، يرأس الخليفة ليطلع على الأخبار أو يطلب منه نصائح. له خاتم، وتحت إمرته نقيب (C.Brosselard, 1952, p 9).

النقيب: بالزاوية الأم هو الخليفة، ينوب عن الشيخ، يسمى كذلك شيخ الحضرة، يقوم عادة بإمامة الصلاة (O.Depont et X.Coppolani, 1997, p 207-208). أما بالزوايا الفرعية فمهمته نيابة الشيخ في الأوقات اللازمة، تحت إمرته عدد من الأعوان الثانويين أهمهم الرسول (C.Brosselard, 1952, p 9).

الرسول أو شاوش: بالزوايا الفرعية، هو رسول المقدم للعامة، يقوم بإخطار المريدين بموعد مرور المقدم لجمع الصدقة (O.Depont et X.Coppolani, 1997, p 195). أما بالزاوية الأم، فيتواصل بينها وبين فروعها، كذلك يتواصل بين الشيخ والخليفة (C.Brosselard, 1952, p 9).

الأعضاء الباقون: الإخوان (المريدون) أو الفقراء والخدام (العامة)... (E.Doutté, 1900, p 67)

3) المداخل:

المقاصود بالمداخل ثروات السلطة الدينية، نقدا وعينا. وقد تمتع المتصوفة بمداخل قارة وغير قارة، بلغت بعضها درجة كبيرة من الثراء.

أ) الأوقاف: اعتبر المسلمون الوقف تقربا من الله، وخدمة لذويهم وفقراء المسلمين. وكان أغلب الجزائريين يوقفون بعض من ثرواتهم على الأضرحة والزوايا... إذ لا يوجد قبر من قبور صانعي المعجزات الشعبية، ولا زاوية يديرها أحد ذريتهم، لا يحيط بها عدد كبير من الهكتارات من الأراضي الخصبة، في شكل أوقاف محبوسة على المؤسسات الدينية. كما أن الحكومات المتوالية على الحكم في الجزائر، ولكسب حياذ الشخصيات الدينية منحها حق الانتفاع بمساحات شاسعة من الأراضي. وبهدف عمل الخير أوقف الناس الكثير من العقارات لفائدة الأولياء الذين يعتقدونهم. وهكذا تكون هذا القطاع الضخم من الأوقاف المحبوسة التي قدرت سنة 1246هـ/1830م بأكثر من تسعة ملايين هكتار، وكانت تعطي دخلا هائلا يُستخدم في صيانة المؤسسات الدينية، ويؤلف المورد الأساسي للهيئات الدينية (العيد مسعود، 1988، ص 16).

ب) الصدقة أو الزيارة: هي أيضا مصدر قار لمداخل السلطة الدينية، وهناك ثلاثة أشكال من الصدقة في بلاد المغرب: المعونة: الأكل المجاني. التاوسة: الدين المجاني. التوزيع: العمل المجاني. والصدقة إلزامية وتُستغل لترميم أماكن العبادة، أو تمويل الزردة، الوعدة... (Mr l'Administrateur de la commune mixte de Beni Mansour, 1904) وغالبا ما تكون عينا. وفي الجنوب الغربي للجزائر، خاصة لدى قبيلة أولاد سيدي الشيخ، لها حد معين (العيد مسعود، 1988، ص 17). كما أن القبائل التي كانت خارج سيطرة البايك كانت تدفع العشور للزاوية (N.Saidouni, 2001, p 302). والصدقة مورد هام يأتي من زيارة المريدين للشيخ أو المقدم، وهي وإن كانت إلزامية لم تكن في حال من الأحوال مصدرا لإفقار الأهالي، بل كانت مصدرا للإعانة الاجتماعية... (Mr l'Administrateur de la commune mixte de Saida, 1904, p 3) وإن لم تتمتع جميع الطرق الصوفية بثروات كبيرة، فإن الطرق الصوفية التي كان لها مريدون ومتحمسون لتقدم هدايا معتبرة للشيخ أصبحت عمارة مستقلة ذات ملك يعمه الثراء والنفوذ. وقد تبلغ الأموال المسلمة للشيخ مبالغ كبيرة، فتصبح الزوايا ضربا من البنوك، والوكلاء ملزمون باستثمار أموالها المودعة لدى أيادي "فاضلة"، لكن الأمر لا يخلو من المفاجآت غير السارة، وقد يتفق أن يموت الشيخ ولا يترك وثائق بيانية عن الودائع (محفوظ سماتي، 2007، ص 67).

وهكذا رأينا أن الشيوخ الدينيين ومرووسيههم وأتباعهم انتظموا في شبكات كبيرة يمكن أن تغطي مسافة كبيرة بين الشيخ ومقدميه، دون أن يؤثر ذلك على العلاقات بين الأصل والفرع. وكان تمويل هذه العناصر من أوقاف المسلمين الذين تسارعوا للتصدق بأموالهم ووقف أملاكهم على زوايا المرابطين والطرق.

ثانيا: السلطة الدينية خلال العهد العثماني:

يرى أغلب المؤرخين أن بروز التصوف في القرن 9هـ/15م ليس سوى رد فعل على أوضاع وأفكار كانت موجودة، وقد سبق ظهور التصوف الشعبي التصوف الفلسفي، وذلك راجع إلى أن أغلب متصوفة العصور الأولى للإسلام كانوا في الأصل علماء، وعندما ركز المسلمون وانحطت ثقافتهم ظهر التصوف الشعبي الذي سيكون له أثر على بلاد الإسلام. إذن التصوف الذي كان عبارة عن الزهد في الدنيا والسعي للجنة، ثم أضحي عشقا وحباً، استمر إلى أن أصبح قوة يمنحها الله لعباده المصطفين، تجسدت في البركة التي تنازعها المرابطون والشرفاء وشيوخ الطرق الصوفية، فترك الاجتهاد وانتشر التقليد واجترار مصنفات السلف، الأمر الذي أدى إلى انفلات الحركة من مراقبة الدولة، خاصة بعد أن فشلت هذه في حماية بلاد الإسلام بالأندلس ثم في حماية عقر دارها بلاد المغرب.

1) التصوف في العهد العثماني:

كان التصوف الشعبي، الذي شكل مع اللغة العربية والتوازن الاقتصادي الجديد الذي نشأ لصالح البدو (بعد الهجرة الهلالية) النمط الذي استمر طيلة الوجود العثماني (R.Le Touneau, s.d, p 15)، كان رد فعل على الأوضاع العامة التي كانت سائدة: فـ "فجر القرن 16م فشلت فيه الدول القائمة، وتفرقت سلطتها أيادي سبا، وحملة الصليب تمكنوا من أكنافها، والقحوط جف لها ضرع وزرع أرضها. وزاد العتمة دخول المسلمين القرن 10هـ الذي سينتهي عامه الألف بفناء الدنيا ونهاية الإسلام. وما هذا الفجر المدلم إلا نذير بالنهاية المحتومة والفناء الوشيك" (عبد الله نجمي، 2000، ص 187).

هذا الواقع الحالك ترتبت عنه عواقب بأذهان أهل هذا القرن، وكان الخوف على رأس هذه العواقب، وهو خوف لا يزداد مع مرور السنين إلا حدة، ولا تزداد وطأته إلا شدة بفعل الترقب والانتظار؛ ترقب القيامة وانتظار يوم النشور. واستوى في الاعتقاد بصدق هذا الخبر الخاص والعام من أهل القرن 10هـ/16م، فالشيخ زروق (899هـ/1493م)، كان يدعو ربه أن يقبضه إليه قبل أن يشهد هذا القرن، والقطب الملياني (927هـ/1521م) الذي بدأ يذيع صيته، وإن كان سلم بواقع ظهور في آخر القرون مع

فساده وفساد أهله، إلا أنه كان يرى في ذلك ميزة تزيد من نفوذه الروحي (نجمي، 2000، ص 187). وهذا الأخضرى رثى عصره: "... وعاشر القرون هو قرننا هذا الذي ظهرت فيه الفتن، واشتد فيه اليأس وقوي فيه النحس، واشتد فيه طغيان الكافرين، وانتشر فيه ظلم الظالمين، وكثرت فيه شرار الخلائق، ولم يبق إلا آثار الطرائق، والناس فيه ساهون مهطعون لحطام الدنيا...، معرضون عن الدرجات العليا، سابقون فيه إلى هواهم ليوقعوا في أهوى المهاوي وأسوأ المساوي" (عبد الرحمان الأخضرى، 2008، ص 129-130). وذكر عيسى البطوي (بعد 1040هـ/1630م) أنه ألف "مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصالح" لما رأى "شعائر الإسلام قد كثرت والهمم قد قصرت، وانحراف الناس عن الدين الصحيح قد أصبح واضحا، وتجنبهم عن الآخرة قد بات واقعا" (سعد الله، ج 2، 2005، ص 122). لقد أضحى التصوف في العهد العثماني ميدانا للدجل والدروشة والاستغلال؛ مثال ذلك سيدي المجلس الذي كان يأكل الحشيشة ويعطيها لمن يأتيه ويفرض ذلك عليهم، يجدونها في الأكل ثمرة، وكان يداوي بالغائط والبول قائلا: "خرؤنا هو دواؤنا". وذكر عبد الكريم الفكون أن المرأة التي جعل سيدي المجلس الغائط والبول على جرح لها شفيت بعد أيام قلائل. ووصفه قائلا: "وهذا الشيخ المجلس كان الغالب عليه الجذب، كثير السفه في الكلام وإجراء الحنا على لسانه، ويقابل الذكور والإناث بقبيح اللفظ، ويضرب الناس ويعاملهم بالعنف، ومع هذا لا يصد الناس عن زيارته ولا تعاهد منزله" (عبد الكريم الفكون، 2005، ص 154-155-156). وتفسير هذا أنه عندما تشيخ الجاهلون ظهر الدجل في التصوف لأن طبيعة الحياة الصوفية تفتح المجال كثيرا للتخريف، فدخل بعض المتصوفة من هذا الباب إلى التعاويذ والأحجية والخرافات واللعب بالنار... (أحمد أمين، ج 2، 2004، ص 51).

وكان دخول الخرافة المجتمع الجزائري عن طريق التعاويذ والأحجية، فكثيرا ما استعمل الجزائريون الحجاب، الحرز أو التميمة لأغراض شتى منها تجنب المرض، حيث لجأ الناس للطالب ليكتب لهم الأحراز لطرد الجن الذي يسبب المرض (A.Devoulx, 1872, p 471- 472). وتؤكد هذا نصيحة الطبيب الجزائري ابن حمادوش (1199هـ/1725م) في رسالته "تعديل المزاج" باستعمال التمايم والرقى، وبقراءة أنواع من الأحاديث النبوية... للتغلب على بعض الأمراض التي وصفها (سعد الله، ابن حمادوش، 2005، ص 49). لهذا أصبح الصالح في هذه الفترة من "تكالب على الدنيا وأكب على حرامها واغبط فيه، وتلق لأهل الدنيا ونصب لاستحلاب فوائدها شبك الحيل من دعوى الولاية والتعزز بها والتهديد بجاهه

وماله من البركة، واستعمال الحضرات وإطعام الطعام والاجتماع على ذلك، وادعاء الشيخوخة واستخدام التلامذة وإشهار ذكره والإعلان ببحره والنداء باسمه ومآثره. وأعظم من ذلك الزئير والصراخ واضطراب الجوارح كلها عند الدخول في تلك الحضرة ذريعة وسُلماً لارتقاء المناصب والأكل بالجاه والدين والتعالي عن عباد الله" (عبد الكريم الفكون، 2005، ص 188). وهذه أسباب كانت عامة ببلاد الإسلام، زادت في انتشار تصوف شعبي لا يرقى إلى التصوف الفلسفي بحال من الأحوال، فهل كان ذاك التصوف سبباً لتلك الأوضاع، أم هو نتيجة لها؟

2) مكانة الطرق الصوفية:

الطريق اصطلاحاً اسم لمنهج أحد العارفين في التزكية والتربية والأذكار والأوراد، أخذ بها نفسه حتى وصل إلى معرفة الله، فينسب هذا المنهج إليه ويُعرف باسمه، فيقال الطريقة القادرية والطريقة الشاذلية... نسبة لرجالاتها (رشيد دالي، 2010، ص 119)، واسم الطريقة مقتبس من الآية 16 من سورة الجن: "وَأَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا".

وقد انتشرت بالجزائر عدة طرق صوفية، بعضها مشرقية الأصول، وبعضها الآخر مغربي، وعنهما تفرعت باقي الطرق الصوفية، وكان لكل طريقة صوفية زواياها وأتباعها. وإذا وقع التركيز على أبرز الطرق الصوفية، وأهم فروعها التي كانت قائمة في الجزائر في الفترة العثمانية وُجد أنها كانت تنفرع عن طريقتين أساسيتين، الأولى مشرقية الأصل وهي الطريقة القادرية، والثانية مغربية المنشأ وهي الطريقة الشاذلية، وقد تنفرع عنهما العديد من الطرق الصوفية. ويفوق عدد الطرق الصوفية عامة ثمانين، ومرجعها جميعاً إلى أربعين ذكرها أبو علي حسن بن عمر الفحيجي المكي الحنفي، وهو تلميذ الشيخ عيسى الثعالبي (1080هـ/1669م)، في رسالة مخطوطة، وميز فيها بين ما تميز به أهل كل طريق، ونقل ذلك تلميذه العياشي (1090هـ/1679م). وفصل العياشي ذلك بقوله: "وقد جمع صاحبنا (الفحيجي) رسالة استوعب فيها طرق أئمتنا الصوفية الموجودة في هذه الأزمنة غالباً، وذكر ما يتميز به أهل كل طريق، وذكر سنده إلى أقدم تلك الطريقة، وكيفية اتصاله بها" (عبد الله العياشي، ج 2، 1899، ص 217 و 214). وقد قيل لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق (رشيد دالي، 2010، 120).

وقد مال أهل القرن 10هـ/16م وما يليه بكليتهم إلى سلوك الطريق الصوفي، ومن لم يمل منهم بالقلب والقالب فكان لا بد أن يُظهر هذا الميل مداراة عن نفسه لما كان للطرق الصوفية من الصولة

والجاء وعظيم النفوذ (عبد الله نجمي، 2000، ص 200). وقد انتظم التصوف، الذي عمل منذ زمن بعيد لصالح دين أقل رسمية، انتظم منذ القرن 10هـ/16م في شكل طرق صوفية، حيث خنق دورها الزمني نوعا ما الدور الروحي. ومع نهاية القرن 12هـ/18م وبداية القرن 13هـ/19م يرى سعيدوني بداية مرحلة السداحة الشعبية، والاحترام العميق للأولياء الذين كانوا بمثابة درع للنظام الديني؛ كمؤسسي الزوايا والطرق الصوفية والعائلات المرباطية (Saidouni, 2001, p 294). وقد اتخذت كافة الطرق الصوفية بالجزائر الوسط الريفية مجالا لنشاطها، لأن الريف يُعد مجالا صالحا لنشر دعوتها، وكسب الأتباع بحكم المستوى الذهني لسكان الريف، وبالريف كانت بمنأى عن مركز الحكم، ويعيدا عن رقابة السلطة الحاكمة. كما يعود الفضل للطرق الصوفية في التطور الذي حدث في عقلية القبيلة؛ فعوض القبيلة لم يعد ينحصر أفقه في نطاق القبيلة فحسب، وإنما أخذ يتحسس، ولو بطريقة بسيطة، الانتماء للوطن لا للموطن، يُوضح ذلك مشاركته في الثورات على الحكام (العبد مسعود، 1988، ص 11).

3) دور الزاوية:

وُجدت الزاوية في الجزائر خلال القرن 8هـ/14م قبل ظهور الطريقة، وتطورت إلى أن صارت العاصمة الثقافية والسياسية والإدارية في ناحية وجودها، وهكذا حلت محل الرباط (أحميدة عميراي، 2007، ص 33). وتمرور الزمن تطورت مهام الزاوية من الخلو إلى الإطعام ثم الحرب فالتعليم. وغالبا ما كان المرباطون هم سبب تأسيس الزاوية؛ أحياء بأموالهم الخاصة، ثم أمواتا بعد دفنهم في قبة تسمى زاوية. ولعل أقدم زاوية بالجزائر هي زاوية الشيخ سعادة (705هـ/1305م) بالقرب من طولقة بالجنوب الشرقي الجزائري، ثم انتشرت الزوايا خاصة في القرن 9هـ و10هـ/15م و16م.

وكان لسقوط الأندلس، والاحتلال الإسباني للسواحل المغاربية، والفراغ الإداري في المغرب الأوسط، واستعداد السكان لتقبل أي حركة روحية إسلامية، أثر بالغ في انتشار الزوايا. وبظهور العثمانيين والتزامهم الجهاد اكتفت الزاوية في الجزائر بالتعليم والدين، بينما في المغرب الأقصى، الذي لم تصله القوة العثمانية، فقد تمثل نشاط الزوايا في التعليم والدين، والسياسة (نجيب خالف، 2007، ص 90). كما هيمنت الزاوية كبنية اجتماعية على المجتمع الجزائري، وظلت مهيمنة عليه إلى غاية القرن 12هـ/18م. لقد تأثر كل شيء بها، بما فيها الكتابة التاريخية التي لم تعد تسجل أعمال السلاطين والأمراء، بل عادت إلى كرامات الأولياء والمشايخ (عبد الله العروي، 2009، ص 454).

وبعد أن أُقصيت الزوايا في الجزائر، من المجال السياسي، وأُرغمت على حصر نشاطها في المستوى الاجتماعي؛ من إسعاف وإحسان ومواساة وتربية، أصبحت تُمثل الوصلة بين الحاضرة والبادية، فعادت تخدم بعملها هذا مصالح المخزن، وأهداف النخبة الحضرية. وهذا التأويل الوحيد المقبول لما نقرأ في الأخبار عن تلمذة علماء كبار من الأمصار على مشايخ آفاقيين أقل منهم فطنة واطلاعا، وأصبحت شبكة الزوايا (الاتصالات بين الشيخ والأتباع) توازي الشبكات التجارية، وأحيانا تحل محلها. كما أصبح شيخ الزاوية يفضل الاستقرار في الأطراف حتى لا يكون تحت مراقبة المخزن وعرضة لتمحيص الفقهاء، أي كان يضع نفسه تحت حماية القائد المحلي، خاصة في الجنوب، ربما هذا هو سر تميز الجزائر بالهدوء والاستقرار (عبد الله العروي، 2009، ص 511-512) مقارنة بجارتها المغرب الأقصى. وتسعى الزاوية من خلال الحضرة، الوعدة والزردة للمحافظة على نفوذ الشيخ والأثر الروحي للمؤسسة (Saidouni, 2001, p 297).

4) الشيوخ الدينيون:

مع انتشار الطرق الصوفية والزوايا راح الشيوخ يستخدمون جاذبيتهم وهيبتهم الشخصية التي تمثل واقعة حقيقية، ويمارسونها على السكان البسطاء لكي يحلّوا، سياسيا، محل الدولة المركزية التي أخذت تضعف وتضمحل. هكذا راح ينتشر الدين المدعو شعبيا، وراح هذا الدين يغذي المتخيل الجماعي الشديد الطوعية، بسبب أميته واعتماده على الثقافة الشعبية وحدها (محمد أركون، 2007، ص 51). وهذه الأرستقراطية الدينية كان لها ميزة على الأجواد، وهي ميزة القوة بالتجديد؛ حيث يولد الشخص نبلا بالسيف أي بدمه العربي، بينما لأي شخص أن يصبح نبلا دينيا بالتقوى (A.Berque, 1986, p 92). لهذا كانت هذه الأرستقراطية أكثر نفوذا من الأجواد؛ فالمرابط يمثل الاستقرار، واعتبره الناس قديسا، لهذا كانت كلمته مسموعة في الأحوال الشخصية والجماعية، وكثيرا ما حقن الدماء، صالح بين قبائل، و"عنايته" كثيرا ما سمحت بعبور مسافرين عبر مناطق غير آمنة (M.L.Annane, 2010, p 114).

1) شيخ الطريقة الصوفية:

يدين له المريدون بالولاء التام والانقياد المطلق؛ فهو من أولياء الله الصالحين في نظر المؤمنين به، ويستمد نفوذه على أتباعه من القدرة الخارقة ومن العلم اللدني عن طريق الاتصال الذي يحصل له بالعبادة

والمجاهدة (الفيض الإلهي). كما أنه المعلم بزاوية الطريقة الصوفية، وكان يربط المريد بالأذكار، ويمكن أن يشمل نفوذه الروحي عشرات القبائل. في حين أن المرباط هو جد للقبيلة فقط، حقيقيا أو بالولاء. وشيخ الطريقة يخلف والده، كما يمكن أن يكون خليفته أحد الأتباع، إذا كان الأصلح من تلاميذ الشيخ؛ فمحمد بن عبد الرحمان الأزهري (1208هـ/1793م)، مؤسس الطريقة الرحمانية، أوصى للمقدم سي علي بن عيسى (1251هـ/1836م) من المغرب، وأحمد التجاني (1230هـ/1815م)، مؤسس الطريقة التجانية، أوصى للمقدم الحاج علي بن عيسى التماسيني (1260هـ/1843م) وهو من ينبع بالحجاز (مختار فيلاي، د.ت، ص 64-65). وقد انتبه الفرنسيون إلى أن شيخ الطريقة الصوفية استحوذ شيئا فشيئا على نفوذ المرباط، واضطر كثير من المرباطين الانضمام للطرق الصوفية للإبقاء على بعض نفوذهم، ما يُفسر انضمام أعداد كبيرة من القبائل لرؤساء الطرق الصوفية التي ثارت على الحكام في نهاية القرن 12هـ/18م وبداية القرن 13هـ/19م.

ب) المرباط:

كلمة مرباط من ربط العربية التي تعني الالتزام والتعهد؛ أي أن المرباط يعاهد الله على ألا يتصرف إلا لما فيه خير الخلق. لهذا حتى بعد موتهم يبقى هؤلاء المرباطون محل توقير (G.Camps, 1987, p 197)، وتدفن أجسادهم في قبر يحاط بتابوت يمكن أن يلجأ إليه كل مجرم، وبالتالي فإن المكان يصبح مقدسا لدرجة أن الابن لا يجزؤ على اقتحامه لمطاردة قاتل أبيه. إن هذا الاعتقاد في بركة الولي وعقبه وقديسية رفاتة، سمح لأغلب الزوايا أن تحافظ على استمرارها بعد وفاة مؤسسها (A.Cour, 1921, p 88). والمرباط وهو ميت قد يحظى باحترام يفوق الذي كان يتمتع به وهو حي. وقيور المرباطين بالجزائر كثيرة، رغم أن بعض أبناء هؤلاء لم يتبعوا، دائما، سلوك آبائهم، وابتعدوا عن أخلاقهم (حمدان خوجة، 2005، 19)، وغلب عليهم حب الدنيا، وتنازعوا على التركة المادية، من ذلك ما جاء في وثيقة شرعية عن نزاع ورثة مرباط على تركة والدهم (وثائق شرعية، 1812، وثيقة 46). لكن الناس نظروا للمرباطين باحترام وكانوا لا يدعونهم بأسمائهم، وإنما يطلقون عليهم اسم سيدي (حمدان خوجة، 2005، ص 19). وقد يغطي نفوذ المرباط على نفوذ الآغا والقايد، بينما نجد مرباطين آخرين يعيشون في أكواخ على الصدقة (L.Rinn, 1884, p15).

(ج) الشريف:

كل شخص أثبت أنه من نسل الرسول - ص - هو شريف (نبيل)، وعدد الشرفاء كبير في بلاد المغرب لدرجة أن شكلوا فرق كاملة لبعض القبائل، وكان عدد كبير منهم مرابطا (M.L.Annane, 2010, p 113). وقد طبع التصور الاجتماعي لقبائل شمال إفريقيا، المواني لتقديس الأجداد والأولياء، الإسلام في الأرياف. والجد المنسوب للقبيلة هو شريف مغمور، حقيقي أو مدع، قد صار غالبا الولي الحامي للقبيلة، أو لأحد بطونها الرئيسية. وتتخذ القبيلة اسم الولي، ويصير أحيانا هذا الجد موضوع تقديس جماعي سنوي يعبر عن نفسه بنوع من الموسم أو الوعدة، وحول ضريح الجد تفتح قبور أبنائه وأهاليهم، وهكذا ينعم الموتى بالراحة الأبدية التي يدينون بها لهذا الولي الحامي. وتتمثل مهمة هذا الجد، منذ قرون، في حماية الأرض وتوزيع البركة على السكان وعلى محاصيلهم وقطعانهم (كمال دحومان الحسني، 2009، ص 56). وكان لكل قبيلة من الأشراف جدها الخاص بها؛ بقبته وضريحه، ولهم مكانة اجتماعية وسياسية خاصة في المنطقة التي يقطنونها، ونسأؤهم محجبات لا يُسمح لأحد برؤيتهن ما عدا الأقربين، ولا يخرجن للأعمال خارج المنزل، ولا يُزوجن إلا بالمرايطين، كما أن رجالهم لا يتزوجون إلا من بنات المرايطين. وليس لغيرهم الجرأة في سبهم أو إيذاهم على أساس أنهم من أقرباء الرسول - ص -، والكثير منهم لهم شجرة نسب تصلهم بالرسول - ص -، منقوشة على الجلد أو مكتوبة في كراس يتوارثها الأبناء. وجرى العادة أن يحرصوا على التعلم والتدين... (أنجلو غريلي، 2009، ص 208)

اعتمادا على ما سبق، يمكن القول أن بنية السلطة الدينية اكتملت تقاسيمها في العهد العثماني مع بروز الطرق الصوفية كنتيجة لظهور أفكار جديدة في الجزائر، وبرزت الزاوية كبديل عن غياب مؤسسات الدولة، وبذلك ظهر شيوخ دينيون احترمتهم العامة، واستمالهم الحكام الجدد للجزائر.

ثالثا: أبرز الطرق الصوفية بالجزائر وأهم زواياها:

1) الطرق الصوفية بالجزائر:

اتخذت كافة الطرق الصوفية الوسط الريفي مجالا لنشاطها، لأنه مجال صالح لنشر دعوتها، وكسب الأتباع البسطاء، والريف بعيد عن مركز الحكم، وعن رقابة السلطة الحاكمة، لهذا فانتشار الطرق الصوفية بالأرياف كان بحكم المستوى العقلي لسكان الريف، مع ضمان الابتعاد عن مراقبة السلطة الحاكمة. كما اعتمد مؤسسو الطرق الصوفية على الإغراء بالكرامات والغفران لكل من تبعهم، ما أثر

على عقول البسطاء الذين تقبلوا الطرق الصوفية بسرعة وإيمان، ودافعوا عنها (مختار فيلاي، د.ت، 60). وزعمت كل طريقة صوفية أن شيخها أفضل الشيوخ وطريقته أفضل الطرق (ابن عزوز، 1768، ص 21). واشتهر من الطرق الصوفية بالجزائر حسب أقدمية ظهورها (تاريخ الظهور غالبا ما يكون تاريخ وفاة المؤسس):

القادرية (561هـ/1166م): زاد انتشار الطريقة القادرية في القرن 10هـ/16م بالجزائر، لمكانة شيوخها العلمية الذين لم يهاجموا الحكام، حيث شغلوا، في كل من تونس وقسنطينة والجزائر وحتى فاس، مناصب عامة ودرّسوا الفقه. وانتشرت القادرية في الجنوب الجزائري مع مرديها؛ مثل عبد الكريم المغيلي (909هـ/1503م) بتوات، وأولاد سيدي الشيخ (1025هـ/1616م) الذين تركزوا بالجنوب الغربي (A.Cour, 1904, p 96- 97).

الشاذلية (656هـ/1258م): انتشرت الطريقة الشاذلية، في تلمسان وفي الغرب الجزائري، لكن بنسبة أقل، ويرى كور أنها كانت معارضة لسياسة المرينيين بفاس، لأنها كانت منتشرة بالمناطق التي لم تكن خاضعة لهم بالمغرب الأقصى (A.Cour, 1904, p 96).

الشاذية (898هـ/1492م): نجحت الشاذية بما كان لها من نفوذ، وبحقدها على الأجنبي، ودعوتها للجهاد؛ سواء ضد العثمانيين أو المسيحيين، من جمع كلمة القبائل (C.Feraud, 1874, p 141). كما كان لها دور دعوي اجتماعي؛ إذ اجتهد مسعود الشاذي (1028هـ/1618م) للتوسط في النزاعات بين قبائل النمامشة وأهالي ششار بالأوراس، زاوية تمرسين، سيدي ناجي، البنيان... (نا. سعيدوني، 2000، ص 494).

الراشدية اليوسفية (927هـ/1521م): وهي غير الطريقة اليوسفية التي ظهرت في المغرب الأقصى في حياة الشيخ الملياني. كان لها نفوذ على كثير من القبائل منها حميان وعمور. أوجدت روابط روحية جديدة بين القبائل التي انتسبت إليها في الجزائر والمغرب الأقصى، فالحبة في الشيخ ابن يوسف الراشدي الملياني ألّفت بين أفرادها، وأضحى ضريحه قبلة مزارهم ومكان تلاقيهم (عبد الله نجمي، 2000، ص 279).

الغيساوية (932هـ/1525م): يميزها الحماس الديني والسحر، وهي وسيلة الإقناع لدى الريفيين (N.Saidouni, 2001, p304)؛ مثل أكل الحيات والعقارب (A.Certeux, 1884, p

143) والزجاج والمسامير، والحرق بالحديد الساخن... وإن كان للشعوذة دخل في هذا، فهي لا تفسر كل شيء (L.Rinn, 1884, p 381).

الكرزانية أو الأحمدية (1019هـ/1610م): تشبه الزيانية، تساعد خاصة سكان القصور الذين نهبهم الأعراب، الزاوية الأم بالقنادسة (S.Gsell, 1927, p 174).

الشيخية (1025هـ/1616م): إن تسرب المرابطين إلى الجزائر غير وجهها، كتجمع بشري لا تربطه أي روابط إلا الرابط الديني، وهذا ما أدى إلى ظهور قبيلة أولاد سيدي الشيخ (صالح عباد، 2007، ص 165). وقد كانت قبة سيدي الشيخ الكبير في نهاية القرن 12هـ/18م، في الجنوب الوهراني تجذب إليها عددا كبيرا من الزوار، مما زاد في مداخليل الزاوية بشكل كبير.

الناصرية (1085هـ/1674م): أصلها من المغرب الأقصى، أسسها محمد بن ناصر الدرعي الشاذلي، عن طريق الملياني، ذلك أن الدرعي درس على أحد تلامذة تلاميذ الملياني (E.Doutté, 1900, p 79).
الطبية (1090هـ/1679م): تأسست على يد الولي عبد الله بن إبراهيم الشريف (1090هـ/1679م)، والد سيدي الطيب الذي نظم الطريقة (L.Rinn, 1884, p 279 et 372)، وانتشرت وتنفذت على يد الولي علي (1226هـ/1811م)، وسيدي الحاج علي العربي (1266هـ/1850م) (N.Saidouni, 2001, p 303). ميزتها التناسق والوحدة، وهذا ما ينقص كثير من الطرق الصوفية. لديها نفوذ عظيم بالمغرب الأقصى حيث مقرها، وتأثيرها بالجزائر يصل غرب البايك خاصة تلمسان (R.R.Larement, 2000, p 29). ورغم ظاهرها الديمقراطي فإنها لم تنتشر سوى في المناطق الجبلية بالغرب الجزائري (N.Saidouni, 2001, p 303).

الحنصالية (1114هـ/1702م): كان لها أثر بالمغرب الأقصى، أسسها أبو أيمن سعيد بن يوسف الحنصالي، أدخلها للجزائر سيدي سعدون الفرجيوي بعد 1139هـ/1727م، وخلفه سيدي معمر، وهذا الأخير منح بركته لسي للمرابط أحمد الزواوي (ثار على صالح باي، وهذا أعدم سنة 1206هـ/1792م)، الذي حمى الضعفاء من الحكام العثمانيين، وكانت زاويته حرما (L.Rinn, 1884, p 385 et 391, 392).

الزيانية (1145هـ/1733م): أسسها ابن بوزيان المدفون بالقنادسة، مقدم الطريقة الناصرية التي ربطته بالملياني. حمت الزيانية القوافل من قطاع الطرق، ومن اللصوص مقابل الزيارة (L.Rinn, 1884, p 279).

et 412). والطريقة تعمل على مساعدة الآخر، وتبتعد عن الإفراط في التصوف (E.Doutté, 1900, p 81). حاول كل من سلطان المغرب الأقصى وشيخ الطييبة وشيخ الشيعية استمالة إخوان الزبانية دون جدوى (L.Rinn, 1884, p 414).

الرحمانية (1208هـ/1793م): أسسها عبد الرحمان الأزهري المشهور ببوقبرين في القرن 12هـ/18م. انتشرت سمعته لدرجة أن سرق الباشا جثمانه، ودفنه بالجزائر العاصمة حتى يكون ضريحه تحت عينيه. لكن اتضح أن جثمانه لم يزل بقريته آيت إسماعيل بالقبائل (E.Doutté, 1900, p 76). وللرحمانية دعاية محكمة، واتصال سري، ما جعلها أداة سياسية من الدرجة الأولى (M.Emerit, 2002, p 178).

الدرقاوية (1239هـ/1823م): مؤسسها مولاي العربي بن أحمد بن الحسن الدرقاوي، الذي كان يقيم لدى بني زروال في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن 12هـ/18م، وقد أخذ اسمه من أحد أسلافه يوسف أبي درقة (صاحب السيف). كان أتباعها بالجزائر من الأوساط الشعبية، وكانت مراكزها الرئيسية بوهران وجنوب التيطري، ويرى صالح عباد أنها أكثر الطرق الصوفية شعوبة وتزمتا وعنفًا ومعاداة للحضارة الغربية. وصل نفوذها حتى توات، القرارة والنيجر. تميز أتباعها باللحي الطويلة، وارتداء الخرق، والعقد المشككة من حبات كبيرة، وحمل العصا. اشتهر كل درقاوي باسم "بودريالة" (صالح عباد، 2007، ص 114). والظاهر أن صالح عباد بنى موقفه على رأي إيدموند دوتي الذي يرى أن أتباعها يتميزون بالتطرف (E.Doutté, 1900, p 82).

التجانية (1195هـ/1781م): أسسها أحمد بن مختار التجاني في عين ماضي سنة 1195هـ/1781م، وهي السنة التي انتقل فيها إلى بوسمغون حيث بقي استقبالا كبيرا، وأعلن أنه رأى الرسول - ص -، وأمره بالتخلي عن كل الطرق الصوفية التي اتبعها حتى ذلك الوقت. نظم أتباعه حول طريقته، مشترطا عليهم ألا ينظموا إلى أية طريقة، وإلا عرضوا أنفسهم للطرد من الجماعة (أحمد التجاني، أقوال مروية عنه، القرن 19م، ورقة 95 وجه). بعد وفاة مؤسسها أصبح للطريقة مركزين عين ماضي وتماسين (R.R.Larement, 2000, p 29).

السنوسية (1276هـ/1859م): مؤسسها محمد بن علي السنوسي. قال أنه المهدي، وقال كذلك خليفته. تقول بإمكانية التوفيق بين كل الطرق الصوفية، وفي نفس الوقت نادى بالعودة إلى الصفاء الأول أي السلف، ما أثار عليها العلماء (E.Doutté, 1900, p 84-85).

2) أهم الزوايا:

الزاوية بشمال إفريقيا عادة هي الزاوية الأم لطريقة صوفية أو لفروعها، مثل بيت الشريعة التي ظلت منارة هداية للقبائل التونسية والجزائرية الموالية طيلة قرنين، أسسها علي بن محمد المسعود الشابي (1029هـ/1620م) في ترده على الصحراء، لتكون كالزاوية في جبل ششار. رتب فيها دروسا قارة في مختلف العلوم للطلبة الوافدين، يُلقبها هو وكبار العلماء الذين انتدبهم لهذا الغرض، كما كانت مكانا للتقاضي بين الخصوم. ونشرت بذلك المعرفة والهداية بين قبائل النمامشة والحراكتة والحناشنة والنبايل بالجزائر، واستمرت تؤدي مهمتها إلى سنة 1276هـ/1859م حين توفي فيها الشيخ عمار بن رمضان، شيخ بيت الشريعة (علي الشابي، 1979، ص 78). ومن أمثلة الزوايا التي أدت دورا هاما زاوية ابن عباس بالمنعة بالأوراس، المعروفة بمول السبيل، تأسست في العهد العثماني، استضافت سنة 1255هـ/1839م باي الشرق الحاج أحمد، كذلك زاوية سيدي أحمد بن بوزيد أو مولى قرقور، زاوية أولاد سيدي يحيى بن زروق (رحمانية)، زاوية بلقاضي (نا. سعيدوني، 2000، ص 492-493).

ورغم أن أشهر الزوايا كانت تابعة لطريقة صوفية معينة، فإن زاوية الثعالبي (875هـ/1470م) بمدينة الجزائر لم تكن تابعة لأي طريقة صوفية، وكان مقرها ضريح الولي، حيث تنعقد الحضرة. وقداسة الضريح لا تعود فقط لاهتمام باشوات الجزائر بالضريح، بل لتوافد الزوار عليه؛ من مظلومين، ونساء باحثات عن مساعدة على متاعب الحياة، وكذلك لوفرة الهدايا للضريح، ورغبة الناس في دفنهم بالزاوية (H.Klein, 2000, p 161- 162). كما اشتقت بعض الزوايا بالمدن تسميتها من نشاطات حرفية؛ كزاوية الشبارلية بمدينة الجزائر، زاوية الخرازين والنجارين والرقاقين بقسنطينة...، لكن الجماعات الحرفية بوجه عام لم تصطبغ بالصبغة الدينية، فهي تتميز بتنظيم تراتبي دقيق، ما يفسر ربما عدم تداخل الطرق الصوفية والحرف، رغم ما تمتعت به من قوة ونفوذ في بلاد المغرب، ما يفسر دون شك العلاقة الطيبة بين السلطة الحاكمة والتنظيمات الحرفية (عائشة غطاس، 2007، 125 و 385). ومن الزوايا ما هو خاص بفتة اجتماعية مثل الأشراف والأندلسيين (أ.قا. سعد الله، ج 5، 2007، 110).

وكما كان للزاوية في الجزائر دورا إيجابيا فقد كان لها أيضا دورا سلبيا، ذلك أن الزوايا أحدثت البدع في الدين والخرافات والدروشة للعمل على إفساد الأخلاق في الاحتفالات (كمال دحومان الحسني، 2009، ص 99)، لهذا انتشرت الدروشة والخرافات والأباطيل والبدع بين أتباعها بسبب ضيق أفقهم

الفكري، وعجزهم عن فهم التطورات القائمة والحركات الإصلاحية (يحي بوعزيز، 2009، ص 21). بل هناك من اختصر الزاوية في الشعوذة والدجل والغطرسة وبركة مغشوشة واحتيال وتخدير للعقول، وكهنوت وسحر وطلاسم واكتشاف الغيب وتحضير الجن واستخدام أرواح غيبية شريكة مع الله، أو مستقلة عن الله، لها التصرف الأسرع، ومصايد للارتزاق الرديء وخبائث منكرات، هذا باسم الدين والبركة ورضى الصالحين (عبد القادر عثمان، 1998، ص 10).

وهذا الفكر طال الحكام والمحكومين، إذ شاعت لامبالاة سياسية؛ فكل شيء بأمر الله، حتى أصغر الأمور وأتفهها، وما تتابع الأحداث سوى برمجة أزلية أبدية، فمجرد سقوط الحاكم كان الناس يبايعون لمن أسقطه، دون وخزة ضمير (A.Berbrugger, 1857-1858, p 351). وهكذا نرى أن الزاوية لها وعليها، لكن الجانب المظلم غلب على جانبها المشرق في نهاية العهد العثماني، ما أدى لانتشار بدع وخرافات... وهذا في الواقع من أسباب نجاح آخر حملة فرنسية على الجزائر.

خاتمة:

برزت السلطة الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني بعد ظهور واشتهار طرق صوفية؛ مغربية ومشرقية، انتشرت في الجزائر في مناطق شتى. وتمتع الشيوخ الدينيون مع بقية عناصر هذه الفئة بالاحترام، لدرجة أن وقف الناس أملاكهم على زوايا كثيرة، كما لم ييخلوا بالتصدق عند مقامات وأضرحة الشيوخ. كما انتشرت بالجزائر عدة طرق صوفية، لم يكن لها نفس النفوذ لدى العامة، فمن الطريقة التي كان عدد أتباعها بالآلاف إلى الطريقة التي لا تجمع إليها سوى عشرات الأتباع. وكان لهذه الطرق الصوفية زوايا في مختلف أنحاء الجزائر، وإن لم نعد زوايا أخرى لا تتبع أي طريقة صوفية لكنها اشتهرت رغم ذلك لاشتهار المدفون فيها مثل زاوية الثعالبي، لهذا حظيت هذه الفئة باحترام الحكام العثمانيين كسياسة للاحتواء من طرف هؤلاء، لأن الطريقة الصوفية تجاوزت القبيلة واحتوت كل من انظم إليها من مختلف المشارب والأصول والمستويات... فكانت الطريقة الصوفية موطنًا للعديد من القبائل، وكان الأتباع في كنفها وكأنهم في موطنهم، وإن كانوا بعيدين عن قبيلتهم. كما كان للطرق الصوفية وخاصة الزوايا جوانب إيجابية؛ فقد أطعمت المسكين ونشرت التعليم وحمّت الضعيف...، لكن كان لها أيضا جوانب سلبية؛ إذ نشرت الدجل والشعوذة ما أدى، مع أسباب أخرى، لركود المجتمع الجزائري، ودخوله في نوم عميق لم يستفك منه إلا والاستعمار الفرنسي قد حل واستقر بالجزائر.

البليوغرافية

المصادر والمراجع باللغة العربية:

- 1) ابن عزوز المراكشي: كشف وإظهار البدع وأرهاط المبتدعة وأنواع أحوالهم وصفة أقوالهم وأفعالهم وما ظهر في آخر الزمان"، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 2146، فرغ منه في 1182هـ/1768م، ترقيم المترجم الفرنسي.
- 2) أركون محمد: الإسلام الأخلاق والسياسة، ترجمة: هاشم صالح، دار النهضة العربية- مركز الإنماء القومي، بيروت، 2007.
- 3) أمين أحمد: ظهر الإسلام: كتاب في أربعة أجزاء يبحث في الحياة الاجتماعية والحركات العلمية والأدبية والفرق الإسلامية منذ العصر العباسي الثاني حتى العصور المتأخرة، جزء 2، دار الكتاب الحديث، القاهرة- الكويت- الجزائر، 2004.
- 4) بوعزيز يحيى: المساجد العتيقة في الغرب الجزائري، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.
- 5) ترمينجهام سينسر: الفرق الصوفية في الإسلام، ترجمة ودراسة وتعليق: عبد القادر البحراوي، دار النهضة العربية، بيروت، 1997.
- 6) التجاني أحمد: أقوال مروية عنه، ضمن مجموع، مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس، رقم 5461، نسخ القرن 13هـ/19م.
- 7) خالف محمد نجيب: الأربطة، في آثار: مجلة علمية تعنى بالآثار والتراث يصدرها معهد الآثار، جامعة الجزائر، عدد 6، 2007.
- 8) خوجة حمدان بن عثمان: المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، ANEP، الجزائر، 2005.
- 9) دالي رشيد: جذور التصوف في جزيرة العرب، مصر، تركيا وماليزيا، في أعمال الملتقى الوطني الأول حول أبعاد الصوفية: دور الفكر الصوفي الوطني في نشر الثقافة العربية الإسلامية، تحت شعار "تراث ثقافي وهوية"، من 24 إلى 26 فيفري 2010، مديرية الثقافة لولاية عين تموشنت، دار الكتاب العربي للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة، عين تموشنت، الجزائر.
- 10) دحومان كمال الحسني: أشرف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري، دار الخلدونية، الجزائر، 2009.
- 11) سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، جزء 2 وجزء 5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
- 12) سعد الله أبو القاسم: الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري حياته وآثاره، الطبعة 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
- 13) سعيدوني ناصر الدين: مؤسسة الزوايا في الجزائر العثمانية (نموذج بلاد القبائل)، في

International congress on learning and education in the ottoman world, 12-15 april 1999, Research Centre for Islamic History, Art, and Culture, Türk Tarih Kurumu, Istanbul.

- 14) سعيدوني ناصر الدين: ورقات جزائرية: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.
- 15) سماتي محفوظ: الأمة الجزائرية نشأتها وتطورها، ترجمة: محمد صغير بناني وعبد العزيز بوشعيب، دار النشر دحلب، الجزائر، 2007.
- 16) الشابي علي: مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشاوية، في المجلة التاريخية المغربية، عدد 13 و 14، جانفي 1979، منشورات المجلة التاريخية المغربية، تونس.
- 17) عباد صالح: الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، الطبعة 2، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- 18) عثمان عبد القادر: الزوايا في الجزائر عرض وتحليل، إعداد وتقدم: عبد الحليم صيد، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1998.
- 19) العروي عبد الله: يحمل تاريخ المغرب، الجزء 3: من الغزو الإيبيري إلى التحرير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-بيروت، 1999.
- 20) عميراي حميدة: الزاوية في الجزائر، ضمن: من الملتقيات التاريخية الجزائرية، الطبعة 2، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- 21) العياشي أبو سالم عبد الله محمد: رحلته، جزء 2، د. دار نشر، د. بلد، 1316هـ/1899.
- 22) العيد مسعود: المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني، في سيرتا: مجلة تاريخية اجتماعية يصدرها دوريا معهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسنطينة، العدد 10، السنة 6، أفريل 1988.
- 23) غريلي أنجلو: أسلمة وتعريب بربر شمال إفريقيا (كتبه في 1928م)، ترجمة: عبد العزيز شهير، منشورات وزارة الثقافة، المغرب، 2009.
- 24) غطاس عائشة: الحرف والحرفيون 1700-1830، مقارنة اجتماعية اقتصادية، منشورات ANEP، الجزائر، 2007.
- 25) الفكون عبد الكريم: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تعريف وتعليق وتلخيص: أبو القاسم سعد الله، الطبعة 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
- 26) فيلاي مختار: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، دار الفن القرافيكي للطباعة والنشر، باتنة، د. ت.
- 27) نجمي عبد الله: التصوف والبدعة بالمغرب طائفة العكاكزة القرن 16-17م، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2000.

28) وثائق شرعية بالملكية الوطنية الجزائرية: مجموع يحتوي على 59 رسالة من أواخر الحكم العثماني ما بين 1215هـ/1801م و1228هـ/1813م، جمعها أ. باربروجر، الرسالة 46 في تقديم التعازي وذكر اسم قاضي التركات لتقسيم الإرث في أواخر جمادى الثانية عام 1226هـ/1812م عليها ختم، على ظهر الرسالة إجابة القاضي المذكور على الوجه، رقم 2316.

باللغة الأجنبية:

- 1) Annane Med Laid : La destruction des tribus Chronique d'Algérie (1838-1847), Editions ANEP, Alger, 2010.
- 2) Bel Alfred : L'islam mystique, extrait de la Revue Africaine, n° 333 et 334-1927 et 1928, Jules Carbonal Imprimeur-Editeur, Alger, 1928.
- 3) Berbrugger Adrien: Etudes biographiques J. L. L'Africain, in Revue Africaine, 1857-58, OPU, Alger, 1985.
- 4) Brosselard Charle : Les khouans : de la constitution des ordres religieux musulmans en Algérie, imprimerie de A.Bourget, Alger, 1952.
- 5) Camps Gabriel : Les Berbères : Mémoires et identité, seconde édition, Editions Errance, Paris, 1987 .
- 6) Certoux.A et Carnoy Henri : L'Algérie traditionnelle Légendes, Contes, Chansons, Musique, Mœurs, Coutumes, Fêtes, Croyances, Superstitions, etc, tome 1, Maisonneuve et Leclec-Challamel, Paris-Cheniaux-Franville, Alger, 1884.
- 7) Cour Auguste: L'établissement des dynasties des chérifs au Maroc et leurs rivalités avec les Turcs de la régence d'Alger 1509-1830, Ernest Leroux Editeur, Paris, 1904
- 8) Cour Auguste : Recherches sur l'état des confréries religieuses musulmanes dans les communes de .. en novembre 1914, in Revue Africaine, n°62, 1921, Ancienne Maison Bastide-Jourdan, Alger, 1921.
- 9) Depont Octave et Coppolani Xavier : Les confréries religieuses musulmanes, J.Maisonneuve et P.Geuthner S.A, Paris, 1897.
- 10) Devoulx.A : Un médecin condamné a mort pour avoir laissé mourir son malade, in Revue Africaine, 1872, OPU, Alger, 1985.
- 11) Doulté Edmond : L'islam algérien en l'an 1900, Alger Mustapha Giral Imprimeur Photgraveur, Alger, 1900.
- 12) Feraud Charle : Les Harar seigneurs des Hanencha: étude historique sur la province de Constantine, 1874, n° 18, OPU, Alger, 1985.
- 13) S.Gsell- G.Marçais- G.Yver : Histoire d'Algérie, Ancienne Librairie Furne Boivin et Cie Editeurs, Paris, 1927
- 14) Klein Henri : Feuilles d'El Djazair, comité du vieil Alger fonder en 1910 par H.Klein, tome 2, Editions du Tell, Blida, 2003.

- 15) Larement Ricardo Rene : Islam and the politics of resistance in Algeria 1783-1992, Africa World Press, Asmara, Eritrea, 2000.
- 16) Marcel Emerit : L'Algérie à l'époque d'Abd El Kader, présentation de René Gallissot, Edition Bouchene, Paris, 2002.
- 17) Rapport de Mr l'administrateur de la commune mixte de B. Mansour sur les offrandes reçues par les personnages religieux des Taams ou Zerda Ouadas Pèlerinages, Maillot, 11 /02/ 1904, ALG, GGA, H16/4, Archives d'outre mer, Aix- en-Provence.
- 18) Rapport de Mr l'administrateur : Surveillance des personnages religieux, arrondissement de Mascara, commune mixte de Saida, 28/02/1904, ALG, GGA, 16H/5, Archives d'outre mer, Aix en Provence.
- 19) Saidouni N.Eddine: L'Algérois rural a la fin de l'époque ottomane (1791-1830), Dar-Al-Gharb-Al-islami, Beirut, 2001.
- 20) Rinn Louis : Marabouts et khouans : Etude sur l'islam en Algérie, Adolphe Jourdan libraire-éditeur, Alger, 1884.